العام الجديد وجديده

بقلم الكولونيل شربل بركات

يطل العام الجديد ونحن في بلاد الغربة سنة أخرى ننتظر أن يمن الله علينا بالخير والسلام بفجر جديد يغلف لبناننا فيقيمه من ثباته العميق أم قل من غيبوبته وغيابه، يطل العام الجديد والكل يرزح تحت عبئ الفاقة في بلاد الأرز التي لم تعتد أن يعاني أهلها من القلة في أحلك الظروف، يطل العام الجديد والشرق الأوسط محط الأنظار مرة أخرى ومركز الأحداث التي يراقبها العالم،

يطل العيد فهل من جديد؟

في لبنان، وحول مراكز السلطة، لا يزال الوضع على حاله تقريبا ولو أن المعنيين بدأوا يشعرون بأن التغيير على الأبواب وأن الآتي يختلف كثيرا عن الحاضر. وها إن البعض منهم صار يقلل من التصاريح الرنانة ويخفف من التبجح الباطل، ولو أنهم لم يسلموا بعد بالأمر الواقع ويماشوا التغيير المطلوب أو يتقبلوه بالعلن. أما على صعيد القاعدة الشعبية، وهي المعروفة بحسها السياسي، فقد بدأ الشعور بثبات الخط الحالي في سياسات الدول الكبرى يتبلور، ولكنها لا تزال تخاف من "المخفي" وترتاب من التقلب التي تعودته، ومن هنا عدم التفاؤل البادي في الشارع اللبناني بعد. أما الصحافة وهي المفروض أن تقود الرأي العام فترى قبل أن يرى، وتكتشف قبل غيرها، وتفسر وتشرح الأمور والمستجدات قبل حدوثها، وتستبق الخبر والحدث، فهي في لبنان مرعوبة لا تزال يسيطر على بعضها الخوف، أو مأجورة تستلهم المصلحة المؤقتة "فتتشتش" للاحتلال.

ولكن حديث المجتمعات الصغرى صار يتفتق عن بعض التأمل، حيث أن سياسة الولايات المتحدة تظهر شيئا من الثبات في محاربة الإرهاب ومؤيديه، وفي عنادها في المواجهة دونما حساب للاعبي الساحة المحلية أو الإقليمية. وها هو العقيد القذافي الذي صال وجال، تطرف وتعصب، تعنت وتمادى، يقرأ الجديد قراءة حسنة فيطبق المطلوب ويستبق المصير الذي وصل إليه زعيم العراق السابق. فهل يتعظ زعيم سوريا الشاب ويتفهم الأمور قبل أن يسقط نظامه، توأم النظام في العراق، ويصبح هو الآخر من التاريخ؟ هل يستيقظ قادة دمشق، ولو متأخرين، فيعرضوا حلولا تقيهم الذل الذي ذاقه جيرانهم؟ وعلى ماذا يقدرون أن يفاوضوا؟

إن اللعبة العتيقة التي لعبها السوريون مع الولايات المتحدة وهي لعبة تمرير بعض المعلومات الإستخباراتية أو إلقاء القبض على عناصر من القاعدة وغيرها من الإرهابيين لم تعد كافية حتى ولو أراد بعض موظفي الإدارة الأمريكية أن يقبلوا به، لأن ما بعد قانون المحاسبة الذي مر في كلا المجلسين ليس كما قبل ذلك، فلم يعد باستطاعة موظف في الخارجية تحديد سياسة الولايات المتحدة تجاه سوريا لأن المطالب الرئيسية قد حددها "قانون المحاسبة واستعادة سيادة لبنان" وأقل من ذلك غير مقبول. من جهة أخرى المطلوب من سوريا ونظامها قد يكون أكبر مما يتوقع المواطن العادي، وهم، أي السوريون، قد لا يكونون قادرين بالفعل على الاستجابة للمطالب، لا لأنهم لا يرغبون إنما لأنهم لا يستطيعون، ومن هنا خطورة الوضع في سوريا في مطلع هذا العام.

إن ثلاثين سنة من الحرب على لبنان لم تكن كافية لمحوه من الخارطة السياسية العالمية وما نراه الآن هو ولادة جديدة للبنان التعددي الذي لا يمكن أن يحكم بغير الديمقراطية الحقيقية التي تؤكد على حق مجموعاته الحضارية بالحرية والحياة الكريمة، بالتخطيط للمستقبل وبالحفاظ على التراث، بإبداء الرأي وبالنقاش

الحضاري، بالتمثيل الصحيح وبعدم كم الأفواه وفرض الرأي بقوة السلاح أو بالتحايل على القانون أو بالإستقواء بالخارج، أكان هذا الخارج إيران الشيعية وإمبراطورية الإرهاب الخمينية، أم السعودية السنية وأسلحة البترول أو الوهابية المتسترة بطيبة العرب وكرمهم، أم الحقد البعثي المرتكز على جيوش سورية الجائعة إلى جيوب اللبنانيين وأسواقهم المفتوحة وإلى سهول الخشخاش والمختبرات والتهريب. إن لبنان الآتي لن ترهبه عصابات المخيمات المتسلحة بالثورة أو البؤس ولا تلك التي "عشعش" فيها البطل من حقد الأصولية إلى كذبة التحريريين، ولا أفواج تجار الهيكل المتعطشين إلى آخر لقمة في أفواه الفقراء ينتزعونها ليزدادوا ثراء وفسقا وعهرا. إن لبنان الجديد سيقوم على سواعد الفلاحين الأقوياء، وإرادة العمال والمهندسين، وجهد الطلاب والمفكرين، وقوة الشركات الصغيرة والكبيرة التي تعرف أن المنافسة حق ولكن الجشع مرفوض، لأن بلدا كلبنان يجب أن يؤمن التوازن في مجتمعاته، ويعرض الطبقة الوسطى التي تحمل الكيان وتحميه، وتصهر الطاقات وتستغلها، ليزيد معها الإنتاج فلا نعود عاهة على الدول بل دعامة أساسية ومرتكزا لكل مشاريع التنمية والتطور في عالم هو أقرب إلى أن يصبح وحدة اقتصادية متكاملة.

قد يكون المطلوب من السوريين، بعد أن يفككوا منظمات الإرهاب التي اخترعوها ويجمعوا أسلحتها وزعاماتها، أن يسحبوا جيوشهم لتأمين الأمن على حدود العراق ومنع التسلل إلى أراضيه لا الاكتفاء بالأقوال والعواطف واللعب على الكلام، فلا خطر من جهة لبنان ولا خطر من جهة إسرائيل. فلبنان لا يطلب إلا العيش بسلام ولكن ضمن القوانين الدولية، وأول ما يجب على الرئيس الشاب أن يقوم به هو الاعتراف بلبنان السيد المستقل وتبادل التمثيل الديبلوماسي معه بفتح سفارة لبنانية في دمشق وسورية في بيروت ثم سحب أجهزته الاستخباراتية ووقف التدخل في شؤون لبنان أو محاولة الهيمنة عليه. وماذا تريد إسرائيل من سورية غير الاعتراف بها وبحقها في الوجود والمباشرة بمفاوضات السلام الحقيقي الذي يؤدي إلى التطبيع الكامل والشامل وليس محاولة الظهور بمظهر الراغب في السلام ولكن الذي لا يريد التعاطي مع جاره بل خنقه بدون سلاح.

أما الأهم من الكل فهو في داخل سوريا، وهنا بيت القصيد، فلا يمكن أن يقبل بعد أن يبقى حكم سوريا ومصيرها بيد قلة من العسكريين يديرونها بالطريق الستالينية، لا بل الهتلرية، في عصر ذهبت فيه، إلى غير رجعة، كل الأنظمة التوتاليتارية في العالم ولم يبق بعد العراق غير سوريا وعددا قليلا من البلدان التي تحكم شعوبها زمرة عسكرية أو طاقم ديني رجعي أو نظام متحجر متخلف. إن المعركة الحقيقية والفاصلة للنظام السوري ستكون داخل سوريا ومع شعبه، فإذا لم يعرف الرئيس، المتعلم في جامعات بريطانيا، كيف يدخل شيئا فشيئا الإصلاح السياسي إلى بلده فيبدأه بكف يد الحرس القديم وسياسته الترهيبية، ثم بوقف التعدي على الحريات، وبإطلاق كل المساجين السياسيين، انتهاء بتعويد الناس على حرية الرأي والانتقاد التي ستؤمن له نوعا من الانفتاح على مشروع انتخابات ديمقراطية ستطيح، بالتأكيد، بالبعث ولكنها تبقى أرحم من الفوضى التي أذاقها للبنان، والده وجنرالاته الأشاوس، والتي سوف يذوقها، إن لم يأخذ العبر ويتعلم من التجربة اللبنانية وكيفية التعامل مع التنوع والتعدد والرأي الآخر.

الأيام القادمة محك حقيقي لسوريا لا بد لها من أن تخوضه، فإما أن تنجح جزئيا وبأقل ثمن وضرر وبمساعدة الدول الكبرى التي لا تريد لها ما أرادت هي لكل جيرانها. وإما فالمستقبل حالك وقد يصبح اسم دمشق فعلا

يدون في كتب التاريخ، فهي كما سميت منذ العهود الغابرة "دم–سق" أي الأرض التي سقيت دما أو شربت الدم، سوف تشربه من جديد إذا ما سمح الله.

ونحن اللبنانيون إذ نتوجه إلى طفل المغارة أن يرحم هذا الشرق ويخفف آلامه، نأمل منه أن يلهم قادة دمشق ليرتدعوا ويباشروا بالتخطيط للمستقبل وبالتعاون على الحلول، بسحب جيوشهم من لبنان وتفكيك أجهزة التخريب ووقف كل تعد على الغير، كي يرفع الله عنهم هذه الكأس المرة التي سيشربها أبناؤهم، إذا ما بقي التعنت والتجبر سلاحهم، واستغباء الآخرين والتهرب من المسؤولية جوابهم الوحيد على مطالب العالم...

العام الجديد لا بد سوف يأتي بالجديد ولكننا نصلي أن يكون جديده نهاية لآلام لبنان والمنطقة وبداية لعهد مشرق من العمل والتعاون المثمر في سبيل نهضة هذا الشرق الحقيقية المترافقة مع الإنتاج والعمل، مع الجهد والتنظيم، مع الالتحاق بالركب العالمي، لا التخلف الدائم عنه، والتباكي المستمر، الذي يولد دوما الخيبة فالحقد وكل ما يجره هذا وتلك من أفعال وردات فعل شبيهة بحال اليوم. فهل سيكون عامنا الجديد عام الفرح الآتي، واللقاء في الديار، ومع الأحبة، وبأقل قدر من التشفي والحزن؟ أم سيكون عاما آخر من الانتظار، ومسلسلا جديدا من الألم، ولو على غير تراب لبنان؟.